القبائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ٨ —

تقدم ما شاركت قبيلة أسد فيه غيرها عند الكلام على تميم وهذيل، وهذا مانسب إليها بخصوصها، أو مع غيرها مما لم يسبق الكلام عليه، وقد مرت الترجمة لها وتبيان أماكنها.

١ — الفعل الماضي الثلاثي المعتل الوسط، وهو المسمى الأجوف مثل: قال، وباع إذا بني للمجهول، فأكثر القبائل تكسر الحرف الأول وتقلب حرف العلة ياء يقولون: بيع وقيل بإخلاص الكسر في أول اللفظ، وهذه اللغة هي المشهورة بين قبائل العرب، لكن بني قيس وبني دبير من أسد، وبعض قبيلة هذيل يضمون الحرف الأول ويقلبون الألف واواً يقولون: بوع وقول بإخلاص الضم في أول اللفظ، وقد روى عليه قول الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئاً ليت ليت شباباً «بوع» فاشتريت

وقول الآخر:

«حوكت» على نيرين إذ تحاك تختبط الشوك ولا تشاك

ولم يقرأ أحد على هذه اللغة مما ورد مبنياً للمجهول في القرآن الكريم.

وهناك وجه ثالث في طريقة بناء هذا النوع للمجهول وهي لهجة لبعض أسد وبطون من قيس ونقيل ذلك بأن يجعلوا حركة الحرف الأول بين الضمة والكسرة، وبهذه اللهجة قرأ الكسائي وهشام: قيل وغيض وحيل وسيء، وجيء وسيق وافقهما نافع وابن ذكوان في سيء، وسيئت وزاد ابن ذكوان في موافقته: حيل وسيق. وهذه اللهجة تسمى في إصطلاح القراء والنحاة: الإشمام. وهناك إشمام آخر ليس هذا موضع بحثه.

٢ — ما كان صفة على وزن فعلان بفتح الفاء، فالقبائل العربية تجعل مؤنثة إذا كان له مؤنث على فعلى ما عدا صفات قليلة، عددها الأشموني، تبلغ أربع عشر صفة منها خمصان بمعنى ضامر البطن، وقشوان بمعنى الرقيق الساقين، وسيفان للرجل الطويل.

ولهذا فإن ما كان مؤنثه فعلى يمنع من الصرف — أي التنوين — ويرفع بالضمة، وينصب ويجر بالفتحة بشرط عدم إضافته، وعدم تعريفه بأل، لكن قبيلة أسد تجعل المؤنث دائماً على وزن فعلانة، فيقولون مثلاً مؤنث غضبان: غضبانة، وغيرهم يقول غضبى. وعلى لغة أسد تصرف جميع الصفات المذكرة وتجر بالكسرة.

وهنا نتساءل عن هذه الصفات الأربع عشرة التي استثناها النحاة وقالوا إن مؤنثها فعلانة، أكانت في أول أمرها تستعمل بلفظها، ومعناها عند قبيلة أسد؟ أو غلب استعمال أسد لها؟ وهل أخذتها القبائل العربية بمؤنثها؟ واستعملت مذكرها مصروفاً كاستعمال أسد لها؟ أم أن النحاة واللغويين وجدوا في الآثار الأدبية مؤنثها فعلانة — وما ذلك إلا من استعمال أسد — فحكموا بصرفها ومنعوا غيرها من الصرف؟ مع أنه قد يكون هناك مثلها؟ وإذا كانت هذه الصفات مستعملة من أول الأمر عند القبائل العربية الأخرى، فلم كانت وحدها هي التي تؤنث على فعلانة؟

في رأيي أن هذا كان من الآثار الأدبية التي استقرأها النحاة واللغويون فاقتصروا على استثنائها وكان حقهم ألا يخصوها لهذا الاستثناء. كما أرى أنه يجوز لنا أن نمنعها من الصرف حتى نسير على النمط الغالب في القبائل الأخرى بأن تعرب إعراب ما لا ينصرف كما يجوز لنا أن نؤنثها على فعلى تبعاً للقاعدة العامة عند القبائل حتى مع عدم النص على ذلك في معاجم اللغة! ولا معنى لاستثناء بدون معنى، ويجوز لنا أن نصرف جميع الصفات المذكرة التي على هذا الوزن إذا سلكنا طريقة أسد. على أن بعض هذه الصفات التي استثنوها، سمع له تأنيث على فعلى بجانب تأنيثه على فعلانة. حكى ابن الأعرابي امرأة خمصى؛ وأنشد للأصم الدبيري:

لكن فتاة طفلة خمصى الحشى ضريرة تنام نومات الضحى

ونلحظ هنا أن الأصم الدبيري من دبير وهي بطن من أسد فإما أنه خالف لغته وجرى على نهج القبائل الأخرى في تأنيث

فعلان ، وإما أن هذا البطن الذى ينتمى إليه ، يخالف بقية بطون أسد فى تأنيثه .

وسمع أيضاً : كبش أليان ونعجة أليانة وأليا . وجاء ضحيانة وضحيا .

ونجد صفات لم يستثنوها ومؤنثها فعلانة ، فقد ورد شاة ذبانة أى ذابلة ، وفسر القاموس لها بقوله كربانة . وقال شارحه إنها من الصفات التى جاءت على فعلانة فى حين أن القاموس وشارحه لم يذكرا لفظة ربانة فى مادتها . وقالت أعرابية : أجد عينى هجانة — أى غائرة — وشفتى ذبانة وأرانى حبلانة . ولفظة هجانة لم يذكروها فى المستثنيات ولم يذكروها أيضاً فى مادتها ، وإنما جاءت عرضاً فى مادة اخرى .

وقد جرت القراءات القرآنية على اللهجات الغالبة فى استعمال ما كان له مؤنث على فعلى ممنوعاً من الصرف حيث لم يقرأ أحد بالتنوين « غضبان أسفا ... » « حيران له أصحاب » بل اتفقو على منع الصرف . ولم تجىء أى لفظة من المستثنيات فى القرآن حتى نحكم عليها .

٣ — بنو مالك من أسد يضمون « ها » التنبيه التى تأتى بعد « أى » فيقولون فى يأيها الرجل ، ويأيهـا الناس : يا أيهُ الرجل ، ويا أيه الناس إلا إذا تلاها اسم إشارة ، فحينئذ يوافقون بقية القبائل فى فتحها وذلك مثل أيهذا . وقد قرأ ابن عامر أيه الثقلان وأيه المؤمنون بالضم فى حالة الوصل على لغة بنى مالك . ونسب شارح القاموس هذا الضم إلى بنى أسد عموماً .

٤ — إذا كان الاستثناء مفرغاً يعنى أن المستثنى منه ليس مذكوراً فى الكلام فإن ما بعد إلا يكون حسب ما يقتضيه العامل تقول ما جاءنى إلا محمدٌ . ومعلوم أن لفظة « غير » تقوم فى بعض استعمالها مقام « إلا » على أن تكون حركة المستثنى التى يستحقها ظاهرة على « غير » نفسها وهى مضافة إلى ما بعدها تقول ما جاءنى غير محمد برفع غير ، وإضافتها إلى ما بعدها ... الخ المعروف فى علم النحو لكن بعض بنى أسد ويشاركهم بعض قضاعة يفتحون « غير » فى الاستثناء مطلقاً سواء تم الكلام قبلها أم لم يتم يقولون « ما جاءنى غيرك » « وما جاءنى أحد غيرَك » بفتح الراء فيهما وتكون لفظة « غير » على لغتهم هذه مبنية على الفتح عند استعمالها فى الاستثناء .

٥ — فقس وزد بيسر من أسد يخفضون « حيث » فى موضع الخفض وينصبونها فى موضع النصب يقولون كان ذلك حيث التقينا . ومن حيث لا يعلمون » ولم يقرأ أحد على لهجتهم فى حالة الجر أما حالة النصب فقد وافقوا بعض بنى تميم . وسبق من قرأ بها كما سبق أن اللغة المشهورة هى بناء حيث على الضم دائماً .

٦ — بنو أسد يلقون حركة الهمزة إلى ما قبلها إذا كان ساكناً وذلك فى حالة الوقف فيقولون هـذا البُطُو وكرهت البُطَا وهو يسير يبطىء . وسبق أن بعض تميم يفعلون ذلك

٧ — تقدم أن فعل الأمر المضعف يفك إدغامه عند الحجازيين ويظل على إدغامه عند النجديين إلا أن النجديين يختلفون فى حركته الأخيرة فكعب وغنى من قيس تحركه بالكسرة مطلقاً وأغلب النجديين يحركونه بالفتح سواء كان بعده ساكن أم متحرك أما أسد فتحركه بالفتح مالم يكن بعده ساكن فإنها تكسره فتقول . ردَّ الجواب يقولون ردِّ الجواب وتقدم لنا أن بعض تميم يحركون الآخر بحركة فاء الكلمة فى الأمر فتحا وضما وكسرا .

٨ — الفعل الذى ينتهى بواو الجماعة أو ياء المؤنثة يقف عليه بنو أسد وبعض قيس فى قوافى الشعر بحذف الضمير يقولون عند الوقف على صنعوا وتكلمى : صنع وتكلم وليس لوقفهم هذا أثر فى القراءات .

٩ — تقول أسد فى جبريل باللام « جبرين » بالنون بكسر الجيم أو فتحها ولم يقرأ أحد بلغتهم . كذلك يؤنثون الهُدى والسُرى بمعنى أنهم يعيدون إليهما الضمير مؤنثاً .. الخ والقرآن الكريم استعمل الهدى على اللغة المشهورة بالتذكير . (قل إن هدى الله هو الهدى . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) ولم تقع لفظة السرى فى القرآن الكريم .

١٠ — هُوَ وهِىَ الضميران يسكنون آخرهما فى الوصل والوقف ولا يفتحون الواو ولا الياء وقد روى :

وكنا إذا ما كان يوم كريهة فقد علموا أنى وهُو فتيان

١١ — العضد بفتح فضم ينطقونه بفتح فكسر وذكر البعض أن بعضهم قرأ سنشد عضدك بأخيك بفتح فكسر أى على لغتهم ولم يسم القارئين .

١٢ — يقولون قنط يقنط كضرب يضرب وغيرهم يقول كعلم يعلم وقرأ الجمهور قنطوا بالفتح على لغتهم وقرأ الأعمش وابن وثاب بالكسر على لغة غيرهم . وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش ومن يقنط على لغتهم بالكسر والباقون بالفتح على لغة غيرهم

١٣ — المسكين ينطقونه بفتح الميم . ويكسره غيرهم ولم يقرأ أحد بلغة أسد .

١٤ — من ألفاظهم : إن السعر لخادع : ارتفع وعلا . كلت علاناً فارأيت له وكزة : أي ليس بثابت العقل . ما أعوج بكلامه : أي ما التفت إليه . كرتا الشعر وغيره : كثر والتف وتراكم . الأصلج : الأصم .

١٥ — حكى الأخفش أن بعض بني أسد يقولون فإنهم ، وإنا بكسر الفاء والواو بمعنى أن الكسرة أثرت فيما قبلها وتغلبت عليها .

قبيلة كنانة :

وهذا ما ينسب إلى كنانة التي سبق أن ترجمت لها وبينت مساكنها .

١ — المشهور في المثنى أن يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء لكن بني الحارث بن كعب وزبيد ومراد وهم من مذحج من كهلان وخثعم وهمدان من كهلان وعذرة من قضاعة وبطون من ربيعة وبكر بن وائل من ربيعة وبني المنجر وبني الهجيم من تميم كل هؤلاء مع كنانة يلزمون المثنى الألف في جميع أحواله رفعاً ونصباً وجراً ، وقد جاء على لغة هؤلاء في القراءات المشهورة إن هذان لساحران ، وقرأ أبو سعيد الخدري والجحدري فكان أبواه مؤمنان وحمل على هذه اللغة حديث « لا وتران في ليلة » وقد اقتصر كتاب الصاحبي وكتاب النوادر وكتاب المثنى على نسبة إلزام المثنى الألف مطلقاً إلى لغة بني الحارث بن كعب ، وذكر غيرها كنانة وأضاف بعض الكتب قوله : وأهل تلك الناحية » وأغلب هذه القبائل متجاورة وكنانة التي تشترك في هذا الإجراء هم بنو بكر بن عبد مناة لأنهم هم المجاورون لبني الحارث بن كعب .

ويلحق بما سبق أن كلا وكلتا في اللغة المشهورة ترفعان بالألف وتنصبان وتجران بالياء إذا أضيفتا إلى الضمير وتعربان إعراب المقصور بأن تلزما الألف في جميع الأحوال إذا أضيفتا إلى الاسم الظاهر لكن لغة كنانة — ولا بد أن من شاركوها في المثنى مثلها — تلزمهما الألف دائماً .

والقرآن الكريم جاءت به كلتا في حالة رفع بالألف « كلتا الجنتين » وليس فيه كلتا في حالة نصب أو جر لتبين استعماله وكذلك « كلا » في القرآن جاءت في حالة رفع « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » .

٢ — الأسماء الخمسة أو الستة ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء ، لكن كنانة وخثعم وبني الحارث بن كعب — ولابد أن من سبق ذكرهم مثلهم — يلزمونها الألف في الرفع والنصب والجر وقد روى :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

وفي البيت شاهد على إلزامهم المثنى الألف .

وقد صرح أبو زيد في كتابه النوادر وأحمد بن فارس في كتابه الصاحبي وغيرهما أن هذه القبائل تقلب الياء ألفاً إذا جاءت ساكنة بعد فتحه ولو كان ذلك في الحرف وقد روى :

« طاروا علاهن فطر علاها »

وأصله عليهن وعليها . وروى :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وروبت أبيات كثيرة على لغتهم .

٣ — تقول كنانة في « نعم » حرف الجواب نعم بكسر العين وقد قرأ ابن وثاب والأعمش والكسائي بكسرها على لغتهم

٤ — أكثر العرب تقول سيناء بالفتح والمد أما كنانة فتقول سيناء بكسر السين والمد أيضاً . وقد قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والحسن « طور سيناء » بكسر السين على لغة كنانة . وقرأ الباقون بالفتح .

٥ — تقول كنانة لقيته على فشاش بكسر الفاء وفتحها ولقيته فشاشاً بالفتح والكسر بمعنى لقيته على عجلة .

٦ — تقدم أن هذيلا تقول يازع في وازع ولم ينصوا على أنها تبدل الواو ياء أما بنو ضمرة من كنانة فقد نص بعض اللغويين على أنها تقلب الواو ياء يقولون يازع في وازع وقد روى لخصيب الضمري :

لما رأيت بني عمرو ويازعهم أيقنت أني لهم في هذه قود

لكن هذا النص أرى أنه توسع كثير فهل يقولون في والد ووارث وواهب وواحد ... الخ ياليادياهب ... أو أن نمه استنتاج من لفظة يازع التي تطقها شاعر منهم ؟ أو أن لها نظائر وأمثال أخرى لم يذكروها ؟ على أننا لا ينبغي أن نقيس على هذا الإبدال بل نقتصر فيه على السماع .

عبد الستار أحمد فراج
المدرس بالمعهد اللغوي